❖ مدخـل :

يشكل الأدب المغاربي محورا أساسيا في الدراسات النقدية الحديثة يحتاج إلى عناء نقدي كبير للكشف عن خطه الإبداعي العام الذي انتهجه الأدباء والشعراء المغاربة فحفروه في جسد التجربة الإبداعية الأدبية المغاربية، هذه التجربة التي تستدعي دائما- وباستمرار- الاهتمام الأكبر من قبل القراء والباحثين في ميدان الشعر والنثر، فلقد اقترن هذا الخط الإبداعي العام في مجال الرواية العربية والمغاربية بالمناخ الثقافي العام في الستينات من القرن الماضي، والذي شهد جدالات حول ضرورة ابتداع شكل عربي للرواية يغنيها عن استيراد الشكل الغربي، خاصة وأن نصوص التراث العربي تشتمل على ذخائر من النصوص السردية انطلاقا من كتب السيرة ووصولا إلى كتب التاريخ والرحلات ورائعة ألف ليلة وليلة، ولكن في الآن نفسه كان هناك انفتاح على تحولات الرواية العالمية واجتهاداتها التي كسرت طرائق السرد التقليدي المشدود إلى مفهوم واقعي ضيق، وارتادت عوالم وأشكالا تمزج المتخيل بالمعيش، والتاريخي بالأسطوري، والحدثي بالمحلوم به فأصبحت الرواية المغاربية بذلك عنصرا رئيسيا من عناصر المدونة الروائية العربية بفضل جهود جملة من الروائيين المغاربة الذين اشتغلوا بالجنس الروائي وجعلوا منه خيارهم الإبداعي، ولئن اختلفت التجارب الروائية وتباينت مستويات الكتابة في الأقطار المغاربية فإنها استطاعت في مجملها أن تلفت انتباه القارئ العربي أينما كان بخصائصها المتميزة، التي تشمل "البحث عن تشكيلات نصية وثيمات غير مطروقة تتيح للروائي أن يجدد أسلوبه وطريقته في الكتابة، وهذا نزوع طبيعي عند المبدع خاصة بعد أن يجتاز مرحلة البدايات ويستشعر ضرورة الاهتداء إلـى ملامح شكلية ومضمونية تميزه وتسعفه علـى تشييد كونه الروائـي" [1].

تتنوع التجربة الروائية العربية في المغرب العربي، ويتزايد نمو الإنتاج الروائي بوتيرة متطورة تعكس بجلاء الاهتمام المتزايد بالسرد الروائي، باعتباره أفقا للسؤال الفني والمعرفي في علاقته بمجمل التطورات التي تعرفها المنطقة وعلى المستويات كافة والتأخر الذي عرفته منطقة المغرب العربي على المستوى الإبداعي عن نظيرتها في المشرق العربي، يتم تداركه نسبيا منذ أواخر الستينات وأوائل السبعينات، الشيء الذي أدى إلى ظهور أجيال جديدة من الكتاب بدل أن تبدأ من البداية التي عرفتها بعض دول المشرق العربي على الصعيد الروائي، نجدها تواصل المسير حيث انتهى التطور مع بروز جيل الستينات الذي جاء ليخوض تجارب جديدة في الكتابة والإبداع السرديين من خلال طرح أسئلة جديدة تتعلق بالشكل والمعرفة منظورا إليهما من زاوية مغايرة لما ساد قبل هذه الفترة .

وفي هذا السياق تظهر تجارب جديدة ترمي إلى انتهاج كتابة سردية تمنح تصورا جديدا للإبداع الروائي، مفاده أن كتابة الرواية بحث مستمر عن الشكل باعتباره- هو أيضا- بدوره بحثا عن محتوى غير جاهز ولا مكتمل، وهذا البحث الذي يتخذ هذه الرؤية المتوترة يعكس

[1]- مجموعة من الباحثين: الأدب المغاربي اليوم، قراءات مغربية، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط1، 2006، ص15.

القلق السائد لدى الأجيال الجديدة من الكتاب والمبدعين، وهو ما يتحقق بصور شتى لدى العديد من الروائيين في المغرب العربي [1].

والقراءة الإجمالية للروايات المغاربية من بداياتها إلى اليوم" تلفت النظر إلى تحول واضح في المسار العام، على اختلاف في التفاصيل وشروط الإنتاج والتلقي، وهو التدرج والانتقال من المتخيل الوطني المتصل بمرحلة الكفاح ضد الاستعمار واسترداد الهوية إلى تيمات وأسئلة تخص ما هو خلاقي axiologique أي له علاقة بقيم الأخلاق ونظرياتها وتمتد إلى الكينونة وتجربة الوجود" [2].

وقد يكون هذا التحول في مسار الرواية المغاربية مشابها لمسارها في المشرق العربي نتيجة لعوامل متقاربة، في طليعتها" تغير مفهوم الأدب وانعتاقه من الإلزامات السياسية والإيديولوجية، وانتباه المبدعين إلى وضع مسافة نقدية بينهم وبين الآني المتسارع الخاضع لتقلبات الظرفية والتسخير الدعائي" [3].

مهما يكن فإن تحولات الرواية المغاربية أفضت بالنماذج الجيدة إلى أن تعد عنصرا في بلورة وعي الذات الفاعلة داخل مجتمعات مأخوذة في شرك التخلف والاستبداد والأصولية الجامدة بعبارة ثانية فإن مجابهة الوجود الملموس للتعثرات والخيبات وانهيار أحلام التغيير نحو الأفضل هو ما جعل الرواية المغاربية تنتج خطابا انتقاديا يتسم بالجرأة والعنف والسخرية ورفض الفكر الماضي السائد، وهذا التحول في الموضوعات والفضاءات والإشكاليات تحقق من خلال" تحولات فنية استعملت أشكالا وتقنيات حفرت عميقا في اللغة والمتخيل، ومن ثم فقد أسهمت الرواية المغاربية في تحويل اللغة العربية وتجديدها من خلال إبراز مستوياتها المتعددة، واستثمار وشائجها بلغة الكلام وبالمرددات الشعبية وسجلات الخرافات والأغاني فلم تعد لغة الرواية بلاغة مسكوكة، وإنما غدت مخبرا لصهر اللغات المتساكنة داخل المجتمع وجعل الحياة حاضرة بقوة من خلالها" [4]. حيث استطاعت الرواية بدول المغرب العربي أن تكشف عبر العديد من نماذجها على تنوع في أشكال الكتابة وبناء العوالم التخييلية، والأكيد أن إعادة تأمل الذخيرة النصية للإبداع السردي المغاربي- بالرغم من التفاوت الجمالي وثراء المضامين التي تختلف من بلد إلى آخر بحكم شروط اجتماعية وثقافية وتاريخية، يسهم في استخلاص عدة سمات طبعت امتدادها كميا ونوعيا.

كما أن الحديث عن الرواية بالمغرب العربي موصول بتلك التقاليد غير منفصل عنها ضمن حدود سياسية أو كيانات إبداعية مستقلة، فالمغرب العربي فضاء طبيعي وجغرافي واقتصادي وثقافي...إنه واجهة العالم العربي على المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وإحدى مناطق العالم حيث تبدو القضايا السياسية اليوم شديدة التعقيد، والفضاء المغاربي رغم تجزئته الإدارية والسياسية ذو وحدة إنسانية وثقافية ظاهرة هي أجدر بالاعتماد من أجل استخلاص لحظة ووعي أدبيين يمكن وصفهما بأنهما أصالة فكرية وجمالية قادرة على منحنا تصورا معينا للأدب الروائي المغاربي ووضع الرواية المغاربية وأبرز توصيفاتها السردية

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص18- 19.
[2] - المرجع نفسه : ص19.
[3] - المرجع نفسه : الصفحة نفسها.
[4] - المرجع السابق : الصفحة نفسها.

والحكائية، فالإبداع الروائي مكون ثقافي من جملة مكونات أخرى لبيان التعدد في إطار الوحدة والتنافس في إطار التكامل بين أقطار المغرب العربي والأكيد أن للرواية المغاربية تحقق فني نوعي رغم أنها تعاني من عدة مآزق تخص الإنتاج والتلقي والتداول، إنها خطاب يراهن على أن يكون ثقافيا ومعرفيا حاملا لتصور ما للأدب والكتابة، مع تفاوت درجات النضج أو التراكم المنجز في كل فضاء ثقافي على حدى [1].

فلقد اعتبر الخطاب الروائي المغاربي-"ومنذ بداية العقد الأربعيني- انبثاقا لتيار أدبي تجديدي كان موازيا لحركة يقظة وطنية، من ثمة امتلك الروائي المغاربي وعيا أدبيا وفنيا بأن الرواية قادرة على الانفتاح على الواقع وتحولات المجتمع، علما أن تصوره للجنس الروائي- في هذه الحالة- لم يكن محددا، وأن اعتماده أشكالا معينة من التعبير النثري كانت تتصل حينا بالتراث السردي الكلاسيكي، وأحيانا أخرى تبتكر أساليب جديدة في كتابة القصة والحكاية..كل ذلك كان يظهر حاجة المجتمعات المغاربية إلى قيم إبداعية جديدة مختلفة عن سابقاتها " [2].

فشكل الفضاء المغاربي بذلك رافدا أساسيا غذى ولا زال يغذي الإبداع الروائي بمقومات فنية أفصحت عن نفسها بجرأة في كثير من التجارب، وكان هذا الفضاء بحق نسيجا يختزل التعدد والتنوع في وحدته، ونقطة التقاء يتماهى فيها المقوم الأمازيغي بكل ثرائه التراثي الشفوي، وعمقه التاريخي المختزل لتجارب شعوب المنطقة وآمالها وتصوراتها وهواجسها بباقي المقومات المنفتحة على الثقافة العربية والإسلامية، كما شكل هذا الفضاء بامتداداته الإفريقية والمتوسطية، وبتنوعه السوسيو-ثقافي فسيفساء من الأطياف المتداخلة مدت الرواية ببدائل شكلية وجمالية إيذانا باستكمـال شروط تفردها وخصـوصيتها .

ولقد سعت العديد من الدراسات الأدبية إلى إحداث مقاربات نوعية للنصوص الروائية الحديثة على اختلاف مصادرها وأشكالها ومضامينها، وقدمت بذلك دراسات متخصصة في النقد الروائي بحسب طبيعة النصوص الروائية المدروسة وبحسب طبيعة المناهج التي اختصت بمقاربة هذه النصوص، فحققت الرواية المغاربية في عمر زمن قصير تراكمات مهمة أفرزت شكلا روائيا مكن النقد من البحث عن أدوات متجددة لملاحقة هذا التطور والذي كان مرتبطا بتطور في الوعي بشكل عام، وبما كان يجري في الحقول المعرفية وفي البنيات المجتمعية المرتبطة بها، وفي مجالات مباشرة أسهمت في تسريع التطور على مستوى تجاوز مراحل للوصول إلى بناء فني ناضج في المجمل. فكانت ظاهرة "التناص" ذات الأصول العريقة من أبرز الظواهر النقدية التي أسيل حولها الكثير من الحبر في الأوساط النقدية الغربية والعربية، ولم يبق "التناص" مقتصرا على النقد الغربي بل دخل الثقافة العربية المعاصرة على كل مستوياتها، ونظرا للأهمية البالغة التي تحضى بها نظرية "التناص" في النقد الأدبي لم يعد أحد من الدارسين العرب اليوم باستطاعته أن ينكر جدوى هذا المفهوم الذي يحتضن العديد من المفاهيم والتحديدات، وما قدمه من دفع جديد للدراسة الأدبية الغربية والعربية، فقد جعلها تنمو مختلفة عما كانت عليه وهو الأمر الذي يدل على ثراء ما يقدمه "التناص" من إمكانات هائلة ومتعددة في مقاربة النص الأدبي والبحث عن مكمن الجمالية والإبداع في النصوص الأدبية التي تتفاعل وتتعلق وتتراسخ وتتجاور وتتقاطع

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص32.
[2] - المرجع نفسه : ص32- 33.

وتتعدد ضمن النص الواحد، ويتأثر بعضها ببعض في عملية إنتاج النص الجديد مستوعبة إياه في نصية جامعة، فتتنوع فيه الإحالات المرجعية متفاعلة مشكلة أهم المكونات في العمل الأدبي، سيما جنس الرواية لما تنطوي عليه من إيحاءات دلالية ووظيفية، ولما ترشح به من أبعاد فنية ومرجعية فالنص الروائي هو نسق لغوي قابل للإنجاز والتأويل، والقراءة النموذجية الوجيهة هي التي يمكنها أن تفعل النص في علاقات بنصوص أخرى. فالنص يتمثل ويفهم على نحو علائقي، موصول بنصوص أخرى تتفاعل فيما بينها وينهض التفاعل النصي على استدعاء لنصوص السابقة في نص لاحق للتفاعل معها وإعادة إنتاجها من جديد، فالقراءة التناصية لا تعتبر النص كلا منجزا تاما مستقرا مكتفيا بذاته، بل تعتبره حوارية وتفاعلا وتعالقا مع نصوص أخرى، وهو ما يعبر عنه "بالحوارية" أو "التعدد الحواري" مع "باختين" أو "التناص" مع "جوليا كرستيفا" أو "المتعاليات النصية" لدى "جيرار جينيت"، ولا يخفى على الباحث أن تلك المرونة الواسمة للنص الروائي قد مخضت بعض النصوص الإبداعية للانفتاح على التنوع والتعدد بمكان ما يجعل نسبتها إلى العمل الروائـي محل سؤال .

إن "التناص" هو الذي يهب النص قيمته ومعناه لأنه يضع النص ضمن سياق يمكن الباحث من فض بحث مغاليق نظامه الإشاري ويهب إشاراته المعنى المحدد لها، كما أن الكتابة الأدبية المغاربية سواء كانت إبداعية نقدية أونظرية تنطوي على قدر ملحوظ من "التناص" تفترض قدرا من المعرفة الواعية الضمنية بما سبقها من نصوص أو على الأقل بالتقاليد والمواصفات المتعارف عليها في هذا النوع من الكتابة، إنها تفترض سياقا فوضع النص ضمن سياق يعقد مجموعة من العلاقات بينه وبين مفردات هذا السياق وأطره والسياق أكثر تحديدا من الإطار المرجعي، فداخل هذا الأخير هناك مجموعة كبيرة من السياقات والتعددية هي في الواقع واحدة من السمات الأساسية للسياقات بالنسبة للنص الأدبي، لأن النص الأدبي لا يعرف واحدية السياق وإنما ينحو دائما إلى طرح مجموعة من السياقات التي قد تتباين وتتعارض أحيانا، ولكنها في تباينها وتعارضها تتناظر مع مستويات النص وعصوره المختلفة [1].

فالنص عادة ينطوي على مستويات عديدة، على عصور ترسبت فيه تناصيا الواحد عقب الآخر، دون وعي منه أو من مؤلفه، وتتحول الكثير من هذه الترسبات إلى مصادرات وبديهيات ومواصفات أدبية، يصبح معها من الصعب إرجاعها إلى مصادرها أو حتى تصور أن ثمة مصادر محددة لها، فقد ذابت هذه المصادر كلية في الأنا التي تتعامل مع النص كاتبة أو قارئة أو ناقدة، " فالأنا التي تتعامل مع النص ليست موضوعا غفلا إزاءه لأن الأنا التي تقترب من النص هي في الواقع مجموعة متعددة من النصوص الأخرى ذات شفرات لا نهائية، أو بالأحرى مفقودة الأصـول قد ضاعت مصادرها " [2].

على أن هذه المتون الروائية المغاربية لا تعني أن مسارها- في مجموع الإنتاج- يسلك سبيلا واحدا وهو البحث عن أشكال وطرائق سردية متميزة، بل هناك نصوص اليوم تبدأ من الشكل الواقعي التقليدي قبل أن يتطور الكاتب الروائي ليخوض تجربة المغامرة الروائية

[1] - ينظر: صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة ،ط1،1996، ص57-58.
[2] - المرجع نفسه : ص58.

لحسابه إذا كانت له الموهبة والجلد على المتابعة، وإلى جانب ذلك هناك ازدهار لنصوص روائية تكتسي طابع الشهادة على أزمنة الرماد المتصلة بفترات القمع والتعذيب...وهذه النصوص التي تنطوي على شهادات هامة، مضيئة لم يكتبها روائيون بل مناضلـون مثقفـون لا يعيـرون اهتماما كبيرا للشكل وطرائـق السرد . والناقد عموما لا يستطيع الزعم بامتلاكه النموذج الأفضل والأمثل في كتابة الرواية وإنجازها، لأن مغامرة الفن والإبداع لا يمكن أن تخضع للتقنينات والتقعيدات المسبقة، بل هي مفتوحة على المغامرة والتجريب وكل ما يستطيعه القارئ والناقد هو التفاعل مع النصوص والتورط في تقييمها سلبا أو إيجابا لأن ذلك يصب في المجرى العام لإنتاج خطاب الثقافة داخل المجتمع، وتحيين الأسئلة والإشكاليات، ولكن التراكم النسبي للإنتاج الروائي المغاربي يتيح المقارنة وتمييز الأشكال والأساليب التي تضيف الجديد وتشحذ الرؤية، وتدمج الخطاب الروائي ضمن مكونات الوعي الفردي والجماعي، والارتقاء بالمقاييس الجمالية التي تضمن للرواية وجودا متعاليا على السياقات الظرفية والاستعمالات الشعاراتية [1].

وبعد السفرة الفكرية الطويلة في طيات كتب الأدب المغاربي ورواياته على غرار صنوتها العربية، تبين للباحث أن الرواية المغاربية قد أسهمت في توسيع فضاءاتها لتشمل العديد من المدن والقرى والأرياف والأحياء والمستشفيات والبحر...والمقابر، وكذا السجون إلى جانب فضاءات الصحراء الموريتانية والليبية...فسعت الرواية المغاربية بذلك إلى ابتكار صيغ من التعبير تعكس تقاطع الوعي الأدبي بالوعي الاجتماعي، ولا شك أن ما تراكم من نصوص روائية مغاربية " اتخذت أساليب لتجديد الأداء الفني وتطوير النسيج السردي بكتابة حكاية تتوسل التهكم والهزل بنفس القدر الذي تستثمر فيه الاستيهامات والتدفقات الأدبية، بإيحاءات وتلوينات استبطانية وتأملية تصف عبثية الواقع المعيش ورتابته، وقمع السلطة خلال الأيام العسيرة المظلمة كما في رواية "الجنازة" "لأحمد المديني" و"النفير والقيامة" "لفرج الحوار"، فاهتمام الروائي المغاربي بتجريبه لأساليب جديدة في الكتابة كان يوازيه انشغاله بالبحث عن تصور جديد للأدب يعيد النظر في طبيعتها بوصفها رواية واقعية حينا، أو رواية أطروحة أحيانا أخرى " [2].

وإذا أراد الباحث تلخيص فورة التجديد في الرواية المغاربية يجد أن أغلبية الروائيين عمدوا إلى استحياء العناصر التراثية وإعادة توظيفها من خلال الاحتفاء باللغة الفصيحة ومزج الأجناس السردية واستحضار الأبعاد الفلسفية والمعرفية، فكانت لهذه النصوص التأسيسية قيمة أدبية وثقافية تعكس انشغال الروائي المغاربي بالبحث عن تصور للأدب من خلال تجريب تقنيات حداثية في الحكي مثل:" تكسير مسارات السرد الخطي وتعديد مستويات اللغة وتوظيف الفونتاستيك والباروديا وجعل الميتا-سرد الشارح لمعضلات الكتابة والرواية جزء لا ينفصل عن النص " [3].

أو بمعنى آخر تكسير البنية التقليدية للخطاب الروائي، وذلك من خلال التخلي عن السرد الخطي وعن أحادية الصوت عن الإيحاء باستنساخ الواقع، إن هذا التكسير يقوم على التشكيك في صدقية ما تحكيه الرواية، وجعل الأزمنة و الفضاءات متداخلة، وإدخال الميتا-

[1] - ينظر : مجموعة من الباحثين، الأدب المغاربي اليوم، مرجع سابق، ص20.
[2] - المرجع نفسه : ص35.
[3] - المرجع السابق : ص15.

سرد ليشرح صعوبة الحكي والكتابة ويغدو جزءا من النص، كذلك الاهتمام بالتعدد اللغوي بتعديد الأصوات الساردة والمتكلمة وهذا العنصر يعود إلى كون الرواية جنسا تعبيريا قادرا على امتصاص عدة أجناس أدبية تتخلل السرد وتطعمه وتغنيه بمعاجمها المختلفة وسجلاتها المعرفية المتباينة، إضافة إلى تذويت الكتابة أي" جعل ذات الكاتب حاضرة متفاعلة مع ما تحكيه وحاملة للغة تخصص التجربة وتحملها رؤية معرفية وشعورية تؤشر على موقف الذات الكاتبة، وهذا العنصر لا يقتصر على السير الذاتية والتخييلية فحسب، بل إنه يبرز كذلك في روايات ترتدي أقنعة التاريخ أو تنتحل هياكل الحيوانات أو تعيد تشخيص الصراعات المجتمعية " [1].

شريطة أن يكون الروائي متوفرا على معرفة بالأسس النظرية والفنية للانجازات النصية السابقة والمعاصرة، وأن تكون له أسئلته الخاصة التي يسعى إلى صياغتها صوغا فنيا يتفاعل مع سياقه الثقافي ورؤيته إلى العالم، من ثم يتمكن الروائي من أن يمارس التجريب والتجديد سواء من خلال استحياء عناصر التراث أو بالتفاعل مع تجارب الرواية العالمية فيحاور بذلك الأشكال السردية التراثية حينا كالخبر والحديث والرسالة والمقامة والخرافة ويستدعي حينا آخر شكل ومضمون الرواية التاريخية التي تمجد أحداث الماضي وتضمنها القصص الغرامية المشوقة، فيثير الاهتمام بانشداد هذا الأدب الروائي إلى أوجه من التعبير الذاتـي.

من هنا اعتبر منبع الكتابة الروائية المغاربية اجتماعي يتخذ من الحدث التاريخي سبيلا لتشخيص الهوية أدبيا، "وذاتي يستوعب فيه التخييل الذاتي الروائي وتعتني الحكاية بإظهار التجارب الذاتية للمؤلفين وتفريد السرد، ومنبعها أيضا أدبي ساهمت فيه الرواية بتطوير أشكال النصوص وصيغ الأداء من المقالة في الأسلوب التقليدي، إلى القصة في النثر الحديث، وللأدبي هنا صلة وثيقة بتحديث اللغة الأدبية وتنويع الحساسية الفنية وسجلات التعبير، ولا شك أن التفكير في قيمة الأدب الروائي بالمغرب العربي ليست واحدة ومتماثلة في جميع المجتمعات، وهي غير قابلة للتعميم إذ من الممكن تنسيبها بما يناسب القيم الفكرية وأنماط الوعي الخاصة بكل روائي وبكل فضاء ثقافي علـى حدى . فالدراسة الأدبية المتعلقة بالنصوص تتحدد حسب العديد من الباحثين بتمييز مناهج الدراسة بين سياقية ونصانية، وتتفق العديد منن المقولات النظرية على أن الدراسات الموضوعية للأدب تتركز على تفسير الإنتاج الأدبي وتحليله في إطاره، وذلك تبعا لمرجعياته التي أنشأته والمتعلقة على وجه الخصوص بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإذا ما اعتبر الأدب ظاهرة اجتماعية فضلا عن خصائصها الفنية، فنقطة بدايته لا تتحدد به من حيث كونه يصدر عن مبدع هو الآخر بحاجة إلى مرجعياته، فالأدب كظاهرة هو محصلة علاقاته الاجتماعية .

أما هوية النص فتتحدد في ظل دراسات أدبية تلتزم شرط اعتباره بنية لغوية محايثة مغلقة ومكتفية بذاتها، وهذا يكرس مفهوم المقولة الأساسية في المنهج البنيوي المناقض للكينونة وفهمها على أساس أنها مقولة العلاقة والأطروحة المركزية للبنيوية، هي توكيد أسبقية العلاقة على الكينونة وأولوية الكل على الأجزاء، فالعنصر لا معنى له ولا قوام إلا بعقدة العلاقات المكونة له، ولا سبيل إلى تعريف الوحدات إلا بعلاقاتها فهي أشكال لا جواهر

[1] - المرجع نفسه : ص16.

ولذلك تتحدد هوية النص الأدبي بحسب طبيعة المنهج الخاص باستقصاء خواصه الجمالية وتحليل مستوياته ومعرفة وحداته البنيوية المكونة .

وفضلا عن التعددية اللغوية التي يصدر عنها الإنتاج الروائي المغاربي إلى جانب تنوع المرجعيات الثقافية ومواكبته الإبداعية لتاريخ شعوب المغرب العربي، فهو إنتاج يصدر عن قواسم حضارية مشتركة ترجع إلى تمثل الروائيين لمقتضيات السياقات المختلفة وتجسيدهم لمخزونات الذاكرة ذات الأصول الدينية والتاريخية [1].

وتمثل الرواية المغاربية للسياق الاجتماعي، يعود في أساسه إلى اعتبارات تاريخية ارتبطت بالحركات الوطنية والإصلاحية والتجديد، مما أضفى على الأدب طابعا اجتماعيا وتسجيليا استهدف تخليص اللغة الأدبية من قيود التفكير وتحرير المضمون من الرتابة والاهتمام بالتسجيل لردود الأفعال اتجاه خصائص الحقبة الاستعمارية، خاصة أسئلة الهوية ومقومات الشخصية المغاربية .

هذا ما يقود الباحث إلى أن اشتغال الرواية المغاربية "بالتناص" يتمثل في المحاولة الجادة للنص الروائي لاستيعاب مختلف الفاعليات التي تمكنه من تطوير بنيته وإحكام مدلولاته وعليه فإن وجوده يرتبط بين النص والقصاصات النصية الأخرى التي بدخولها النص تصير جزءا من بنيته الكلية، فسعت التجربة الروائية المغاربية بذلك إلى تحديد أساليب التواصل مع النصوص الخارجة عن إطارها المحدد، من منطلق الفهم الجيد لطبيعة تلك النصوص واستيعاب مضامينها الجمالية، إذ تحقق التجربة الروائية المغاربية غناها واحترافيتها بدافع الموروث الجمالي الذي تشتمل عليه نتيجة تفعيل تقنياتها الفنية .

وتتم معالجة "التناص" وفق نقاط أساسية يمكن أن تكون عبارة عن نماذج لتجسيد "التناص" كفاعلية نصية تشكل علاقة أساسية بين الخطاب الروائي وباقي الخطابات السردية الأخرى بغض النظر عن طبيعتها حيث لا تتوقف حدود "التناص" عند حد التداخل مع نصوص بعينها بقدر ما يتجاوز هذا التداخل تلك النصوص إلى آفاق نصية أخرى متعددة ومختلفة تصل إلى درجة التناقض متمثلة في النص التراثي والأسطوري وغيرها من النصوص التي حاولت الرواية المغاربية استيعابها، فسعت إلى صياغة نسق روائي محدد يستقيم بالمحاورة المستمرة مع النصوص المرجعية، فيتأسس "التناص" وفق رؤية متميزة تستدعي تشكيلا لغويا جديدا يفضي إلى تمكين النص من بناء نسق جمالي يقوم على منطق البحث عن المرجعيات المؤسسة .

والمسألة- في هذا الحال- لا تخرج عن نطاق السياق الحضاري العام الذي ينمو فيه النص من منطلق أن التفاعل مع الخصوصيات الحضارية للمجتمع مسألة طبيعية، بحكم أن النص الروائي لا يقوى على الانشقاق عن ظروفه الحضارية ومقتضيات سياقاته الخارجية، وتفعيل التراث بشكل عام بتوظيفه في إطار السياق الروائي القصد من ورائه إحداث آليات تعبيرية متميزة، تمكن النص من تغطية ملابسات الراهن وتقديم قراءات موضوعية تستند إلى مرجعيات سابقة، وإن الصبغة الجمالية- في هذه الحال- تكمن في السعي إلى صياغة التراث

[1] - ينظر: فتحي بوخالفة، التجربة الروائية المغاربية، دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1 2010، ص87-88.

وفق رؤية واقعية راهنة، تفي بمقتضيات التعبير عن متطلبات الذات الإنسانية الحديثة، والحقيقة أن محاولة قراءة تراثنا الأدبي والفكري ومحاولة التفكير فيه بشكل دائم وجديد من مستلزمات تكوين فكرة دقيقة ومتجددة عنه وعن إبراز ملامحه وسماته، كما أنه من دواعي تشكيل وعي جديد بذواتنا وهويتنا ومستقبلنا [1].

إن الرواية المغاربية كغيرها من الروايات العربية والعالمية، استطاعت أن تفتح صفحاتها لاستيعاب مجمل القضايا الواقعية الراهنة وتجسيد الملابسات الاجتماعية بكافة حيثياتها والتعبير عما يختلج في الذات الإنسانية من آمال وآلام وطموحات، بحيث صار الواقع المغاربي مجسدا بمختلف حيثياته، وبشكل ينحو نحو الموضوعية في التحليل والمعالجة بكافة مشاهد الانتصار والسقوط، عبر مختلف المراحل التاريخية التي مر بها الفرد المغاربي، وإن كانت الرواية المغاربية قد تخصصت في معالجة مواضيع الراهن بحسب الحقب التاريخية التي مرت بها المجتمعات المغاربية، تكون بذلك قد حققت ما يسمى بتجاوز مرحلة التجريب إلى الانطلاق في آفاق الاحترافية والعالمية، والخروج من الحلقة الضيقة في المعالجة إلى استحداث أساليب فنية جديدة وراقية في تجسيد قضايا الراهن، فلم يعد هناك ما يسمى بالرواية التقليدية الكلاسيكية في المغرب العربي لوحدها بل ظهر إلى جانب ذلك الخطاب الروائي المغاربي الجديد، بما صار يشمله من خصائص على مستوى الطرح وتقنيات المعالجة، وذلك ما يبرر وجود ما يسمى بالحداثة الروائية .

هذا ما شد انتباه القارئ إلى التأمل في كتابات روائية مغاربية زخرت معظم نصوصها "بالتناص" والجماليات التي يترك أثرها الاستعمال المتميز له إلى اختيار مدونة أرادها الباحث لرصد تجليات ظاهرة "التناص" وجمالياته في صفحاتها، فمن "الجزائر" التي يتميز أدبها بإبداعات كثيرة سايرت مجريات العصر ومجريات الآداب العالمية، إلى أدب "المغرب" الشقيق الذي يحمل في طيات كتبه أجمل العبارات وأرقى الأساليب، إلى أدب "ليبيا" الوافر بمعانيه وظواهره الإبداعية، إلى الأدب "الموريتاني" الذي رغم قلة انتشار إبداعاته إلا أنه استطاع بها مجاراة العصر الروائي العربي، إلى الأدب "التونسي" الذي تميزت صفحات نصوصه بتعددية الشكل واللغة وتقنيات المعالجة وتنوع طبيعة المواضيع المطروحة، غير أن هذه الآداب تبقى مشتركة في معالجة الواقع المغاربي بشكل عام وذلك تبعا للقواسم الحضـارية والتاريخية والثقافية والواقعية المتطابقة إلـى حد ما .

ومن بين هذه النصوص المغاربية تبرز "رواية "اللاز" الجزائرية "للطاهر وطار" والتي دشنت استيحاء تجربة الثورة وكذا "الجازية والدراويش" "لعبد الحميد بن هدوقة" و"حمائم الشفق" "لجيلالي خلاص"، و"ما تبقى من سيرة لخضر حمروش" "لواسيني الأعرج"... " [2]. هؤلاء جعلوا موضوع الثورة وتحولاتها تيمة مركزية في رواياتهم، ولكن سلكوا طرائق مختلفة في الإنجاز النصي وتوسيع حقول الدلالات، وتأتي رواية "عبد الكريم غلاب" "دفنا الماضي" في طليعة النصوص التي استوحت الواقعية وشخصت مراحل الكفاح الوطني فرسمت شخصياتها داخل البيئة القديمة بتقاليد عريقة، وسارت روايته "المعلم علي" في نفس الاتجاه مع رواية "الطيبون" "لمبارك ربيع"، أما رواية "اعترافات إنسان" "لمحمد فريد

[1] - ينظر: سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص15.
[2] - مجموعة من الباحثين: الأدب المغاربي اليوم، مرجع سابق، ص13.

سيالة" الليبي فقد حملت ملامح الأسلوب الواقعي الكلاسيكي وتلتها رواية "حقول الرماد" "لأحمد الفقيه" والتي قدمت أنموذجا متقدما يفضي إلى استيعاب طرائق السرد الواقعي والقدرة على التنويع وتطويع الشكل، أما رواية "الغربة" "لعبد الله العروي" ورواية "المرأة والوردة" "لمحمد زفزاف" فقد خرجتا بالرواية المغاربية من الطرائق السردية الكلاسيكية إلى ارتياد تركيب فني يضيف عناصر جديدة تفسح المجال أمام الصوت الذاتي لمحاورة الواقع، لتأتي الرواية الموريتانية الأولى التي قدمت أنموذجا للكتابة الواقعية الراصدة لمرحلة النضال وللفضاءات الموريتانية من خلال تقنية مستوعبة للشكل الواقعـي .

انطلاقا من هذه الفئة كانت بدايات الرواية المغاربية والتي اتسمت باتصالها بالسيرة الذاتية والشكل الواقعي التخييلي، بينما ظهرت روايات جديدة حاولت دمج الميتا-سرد داخل النص مثلما فعل "مبارك ربيع" في "بدر زمانه"، و"هشام القروي" في رواية "ن" التي تخلل الميتا-سرد مجموع النص من خلال تكسير خطية الحكي، وكذا "عبد الحميد بن هدوقة" في رواية "غدا يوم جديد" التي خرج فيها عن طريقته في السرد الكلاسيكي ليكتب نصا آخر، حيث يتبع السرد منطق التداعي وتداخل الأصوات والحوارات والأزمنة، إضافة إلى رواية "ليلة الليالي" "لحسن بن عثمان" التي دس فيها الكاتب الميتا-سرد في ثنايا النص لأغراض متباينة .

لقد أسهمت كتابات هؤلاء الروائيين في تغيير الخطاب الروائي من خطاب استنساخي محاك إلى خطاب يتفاعل مع الصراعات والتناقضات ويتعارض مع الأحكام والتقييمات المطلقة والأمثلة على ذلك كثيرة أهمها:" الجلد تحت القناع" "لمحمد رضا الكافي"، و"رواية الفريق" "لعبد الله العروي"، "ذاكرة الماء" "لواسيني الأعرج"، "خفق أجنحة" "لمحمد عز الدين التازي"، "نزيف الحجر" "لإبراهيم الكوني"، رواية "حشيش" "ليوسف فاضل" "نخب الحياة" "لآمال مختار"، و"ذاكرة الجسد" "لأحلام مستغانمي"، أما رواية "أيام جبلية" "لمبارك ربيع" فهي تصور أحداثا جمالية ودلالية من أجل خلق نوع من التضارب فـي المواقف لعلها تقوي إلـى حد ما البعد الحواري فـي الروايـة، لتأتي رواية "القبر المجهول" الموريتانية ذات الدلالة الرمزية بحيث لا يصرح نصها بالأفكار الواردة فيه مباشرة وإنما تعبر عنها من خلال عالمها التمثيلي، ومن الروايات التي اتصلت بالتراث السردي من خلال محاورتها للأشكال التراثية السردية رواية "غادة أم القرى" "لأحمد رضا حوحو" "وريح الجنوب" "لبن هدوقة" وكذا رواية "الزلزال" "للطاهر وطار" و"شقراء الريف" "لعبد العزيز بن عبد الله" [1].

لقد قاد بحث الروائي المغاربي عن أشكال جديدة في الكتابة إلى توسيع فضاءات الحكاية وأضحت الرواية متعددة الأصوات والرؤى والأساليب تستعيد سرديات التراث مثل رواية "نوار اللوز" "لواسيني الأعرج"، وتقتحم مناطق المخبوء الذاتي والوجداني مثل رواية "خميل المضاجع" "للميلودي شغموم"، وترتاد عوالم الرغبة ونزوات الشعور والتعبير الشعري مثل "الضوء الهارب" "لمحمد برادة"، أو تصور واقع الحرمان والتهميش برؤية انتقاديه وساخرة مثل "زمن الأخطاء" "لمحمد شكري"، كما انفتحت رواية "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" "لواسيني الأعرج" على مشهد روائي يرتبط بإحكام الصلة بين نص

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص14-15-16-17-34-35

سابق ونص لاحق يتعلق النص السابق بليالي "ألف ليلة وليلة" الخرافية كما تأسست على رؤية ثقافية معينة من خلال تداخلها مع النص القرآني والاستعمال المستمر لهذا النمط. كما يستمد الاستيعاب النصي مشروعية وجوده من علاقة السياق مع القرآن، ومع مختلف النصوص التراثية الأخرى في رواية "ذاكرة الجسد" "لأحلام مستغانمي" التي يعتبر مضمون روايتها مضمونا ثقافيا إلى أبعد الحدود [1].

أما في رواية "العجب العجاب" "لأحمد المديني" فتشكل المجاورة وفق خاصية جمالية جعلت الرواية قائمة على قصاصات سردية صارت فيما بعد عنصرا بنيويا يحقق وجوده ميزة جمالية، واستلهام النص الروائي المغاربي يعود في الأصل إلى حتمية الصلة بالتاريخي والشفاهي كما في رواية "الأسماء المتغيرة" "لأحمد ولد عبد القادر"، أو برغبتها في إعادة اكتشاف الماضي وآثاره وبقاياه في الطبيعة والشعور كما في روايات "المجوس" أو "التبر" أو "نزيف الحجر" "لإبراهيم الكوني" الذي ابتدع فضاء روائيا أسطوريا يستظل بالصحراء، فجعله مجالا لأطروحات فكرية وفلسفية [2].

كانت هذه بعض النماذج من بين جملة كبيرة من الروايات المغاربية التي تتعدد متعة قراءتها بتعدد العالم الروائي أسلوبا وسردا وأحداثا، فتعتبر- إن صح القول- نصوصا إشكالية تتجاوز حدود سرديتها وحدود تخيلها ومتخيلها، لتجعل القارئ يبحث في المشاريع العامة لكتابها الروائيين النقاد الباحثين، فهي وثيقة أو شهادة عن ذاتية الكتابة ترصد سيرورة من الأحداث والتحولات الهامة.

لقد حاول الباحث في الفقرات السالفة أن يبرز بعض القضايا التي تخص وضع الرواية بالمغرب العربي وتعيين بعض توصيفات النصوص وتعبيراتها الحكائية متوخيا من ذلك تقديم وصف جزئي للحصيلة الروائية من خلال الإحالة على نصوص مفردة تسهم في رسم ملامح الكتابة الروائية المغاربية، بعدما تحقق لها تراكم نصي لافت للنظر وتجارب تراعي خصوصية المجتمع والثقافة، هذا ما يبين قيمة الأدب الروائي المغاربي لما يجسده من حاجة إلى استكناه التجارب الذاتية ومفارقات الواقع عبر التخييل وابتداع أشكال سردية متنوعة الأساليب والصور، بصرف النظر عن انتسابها إلى ذلك الوطن.

ولا شك أن القراءة المتأنية لما أبدعه الروائي المغاربي من نصوص تبين أن رهانه الأساس لم يكن مقتصرا على الإنتاج الكمي، "بل كان منشغلا أكثر بتحديث طرق الكتابة وتراكيبها الفنية عن منطق أسئلة الحاضر وانشغالات الفرد من هذا المنظور فالروايـة - عموما- ورغم كونها خديعة عديمة الجدوى حين تريد إصلاح الحياة، فإنها تظل فعالة عندما تفلح في إدراك معنى الحقيقة والوهم دفعة واحدة" [3].

ولقد دافعت "مارت روبيرث" عن هذه الفكرة في أطروحتها "رواية الأصول واصول الرواية" حين قالت:" ليست حقيقة الرواية أبدا شيئا آخر، سوى التنامي في قدرتها على

[1] - ينظر: فتحي بوخالفة، التجربة الروائية المغاربية، مرجع سابق، ص324.
[2] - ينظر: مجموعة من الباحثين، الأدب المغاربي اليوم، مرجع سابق، ص15.
[3] - المرجع السابق : ص35.

ممارسة الإيهام، لذلك فإنه بوسعنا اليوم أن نقرأ الإبداع الروائي المغاربي بابتهاج لأنه صنو الحياة، وحمال لمشاعر إنسانية تقاوم غبار الأيام وغربة الأجساد والأفئدة " [1].

أما "الأدب التونسي" والذي أبا الباحث في سفرته هذه إلا أن يختار منه نصا أدبيا روائيا رغبة في الاطلاع والاستفادة من أدب الأشقاء، ذلك أن الرواية التونسية هي كغيرها من الروايات المغاربية الأخرى قد تمكنت من تحقيق مكانة مرموقة داخل الفضاء المغاربي والعربي، بل إنها اكتسبت مكانة بين الروايات العالمية بفضل اهتمام المترجمين والباحثين الغربيين بها، فالثقافة التونسية بصفتها جزءا من الثقافة العربية قد أفرزت عمالقة حضيت مؤلفاتهم بالشهرة العالمية التي تبقى مدى الدهر لما تحتويه من فنون يتفاعل معها الإنسان مهما كان نوعه وجنسه ويتأثر بها مهما كان موطنه، ذلك أن الفن الأصيل الراقي يتناول نظاما في الفكر المتعدد في الحياة، يكسوه حلة فاخرة هي الجمال، ويخلق للأديب أدبا أصيلا قوي الإبداع قادرا على التصرف في مادته وتركيز إنتاجه على مضامين ثرية مستوحاة من واقعه المتميز.

يقال أن "تونس" قد سبقت دول المغرب العربي في معرفة الكتابة الروائية، ذلك أنه خلال الفترة الممتدة من 1945 إلى 1962 كانت قد صدرت عدة روايات تونسية، وكانت الترجمة قد لعبت دورها في إثراء الرواية التونسية آنذاك .

ولكون الرواية التونسية قد تعلقت منذ نشأتها بالواقع الاجتماعي التونسي فكانت ترجمانا صادقا له، إذ انعطفت عليه ناقلة تحولاته محللة أزماته، فشهدت بذلك تراكما كميا لافتا ساهم في ظهور جيل روائي جديد أراد أن يقتحم ويزاحم بنصوصه عالم الكتابة الروائية فظهرت إلى الوجود روايات اهتم فيها أصحابها بتوظيف نصوص سابقة في نصوصهم الحاضرة تنوعت فيها الاهتمامات، ومن هذه الروايات الكثير يحاول الباحث ذكر البعض منها لبيان أثر "التناص" في الروايات التونسية والتي لا تختلف عن شقيقاتها في بلدان المغرب العربي .

تعتبر رواية "ومن الضحايا" "لمحمد العروسي المطوي" أول رواية سلكت الطريقة الواقعية لتصوير مشكلات اجتماعية تتصل بالأرض وطغيان الإقطاعيين، وهي رواية ذات صنع محاك لعناصر الأسلوب الواقعي التقليدي، لذلك لا توجد لها امتدادات عميقة . بل إن النص المؤثر هو رواية "برق الليل" "للبشير خريف" فهي "قصة شعبية تاريخية بطلها "برق الليل" الذي عاش أحداثا تاريخية خطيرة في القرن العاشر الهجري، اقتحم فيها المؤلف أحداثا تاريخية للتشويق، وهي تعكس في النهاية التركيبة الاجتماعية من خلال وضعيات صراعية متعددة فهذه الرواية بما انبنت عليه من توازن بين الحياة الاجتماعية والمواقف الفردية تعتبر علامة بارزة في الرواية التونسية، تجرأ فيها الكاتب على توظيف لغة الكلام ومزج المناخ الاجتماعي بالأحداث التاريخية من خلال سرد يستوحي المرددات الشفوية، وهذا النمط من الرواية لا يخلو من التشويق في عرضه للأحداث من خلال شخصيات لها حضور تاريخي أو هي مسندة إلى أحداث تاريخية [2]. أما روايته "الدقلة في عراجينها" "، و"يوم من أيام زمرا" "لمحمد صالح الجابري"، ورواية "حليمة" "لمحمد العروسي

[1] - المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

[2] - ينظر: صبري حافظ ، أفق الخطاب النقدي، مرجع سابق،ص71 .

المطوي"، فرغم سعيها لإبراز بعض "التناص" مع الفترات التاريخية الحديثة فإن توجهها يبقى اجتماعيا بالأساس .

إلا أن تأثير "محمود المسعدي" الذي يعد الكاتب المؤسس للكتابة الروائية في "تونس" بصرف النظر عن أية اجتهادات قد تقوم في مواجهة مشروعه الروائي، "فمحمود المسعدي" صاحب روايتي "السد" و"حدث أبو هريرة قال" يمثل أنموذج المثقف التونسي الذي جمع بين الثقافة الفرنسية والعربية بصورة يتحقق فيها النضج والتكامل دون انبهار أو تبعية، له رؤية أدبية تحدد مساره في أعماله الإبداعية .

لقد طلع "المسعدي" بأسلوب جديد أعاد للغة العربية الفصحى إشراقتها القديمة ومضامين مستوحاة من التيارات الفكرية السائدة بالغرب، معنى ذلك أنه يوظف عناصر التراث ويحتفل باللغة الفصيحة ويزاوج بين الموروث والحداثي في تجربة تختلف عن معظم الروايات المغاربية، ولأن" أدب "المسعدي" هو أدب الفصل وأدب الإيمان بالقدرة على الخلق كانت روايته "السد" من أروع الروايات التي ليس لها من المسرح إلا الحوار ولكنها غير قابلة للتمثيل، فهي أقرب إلى القصة استحيا فيها العناصر التراثية وأعاد توظيفها من خلال اللغة الفصيحة، ومزج الأجناس السردية فيها مع استحضار الأبعاد الفلسفية والمعرفية، تعالج قضايا جوهرية كثيرة، فالأدب عند "المسعدي" هو إفراز التوترات والتفاعلات الجماعية التي تحدث في صلب المجتمع، إن أدبه هـو نتاج أو إفراز مجموعة من التأثرات والانفعالات التـي ينتمي إليها "[1].

أما رواية "حدث أبو هريرة قال" فلم تكن هي الأخرى بمعزل عن تحولات الكتابة الروائية إلا أنها كانت أثرا يختلف من حيث نوعه عن بنية الروايات، وتمتاز بالطرافة والعمق حيث" تتضمن الفكرة الصوفية وتهدف إلى تحقيق نوع من الانزياح الدلالي من الناحية الأسلوبية لاسيما أن الفكرة الصوفية بالنسبة للشخصية الروائية تشتمل على دلالات حقيقية تعكس تفاعل التطورات الاجتماعية الحاصلة في مرحلة تاريخية معينة، من المراحل التي درج عليها المجتمع التونسي" [2].

إن سياق هذه الرواية يسعى إلى تحقيق خصوصية جديدة تتمثل في إحكام الصلة بالتراث العربي الإسلامي وتمتين العلاقة معه، وذلك بتحقيق انزياح نوعي على مستوى الفكرة والأسلوب، فكانت هذه التجربة الصوفية مظهر من مظاهر استيعاب النصوص الروائية لأهم خصوصياتها، حيث تشكلت كظاهرة "للتناص" وتقاطع النصوص من جانب ولاستيعاب معطيات التاريخ من جانب آخر، في الوقت ذاته استطاعت السياقات الروائية اكتساب إمكانية تعبيرية بفضل استيعابها لمعطيات التجربة الصوفية، وبذلك تتحدد خصوصية الخطاب الروائي التونسي في مدى استطاعته ربط هذه التجربة ربطا صريحا بالواقع وفهم خصوصياته في ضوء التحولات التاريخية، وذلك فضلا عن الدلالة العقيدية المباشرة للتجربة كما تبديها الشخصيات، والتي تحقق انزياحا دلاليا وفنيا يمكن من فهم التصورات الجديدة الحاصلة .

[1] - ينظر: المرجع السابق ، ص55 .
[2] - فتحي بوخالفة : التجربة الروائية المغاربية، مرجع سابق، ص194.

وإلى جانب هؤلاء تظهر روايات "صلاح الدين بوجاه" أولها روايته البكر "مدونة الاعترافات والأسرار" التي ضمنها الروائي عناصر قصصية نثرية، وتداخل فيها الخيالي بالتاريخي فكانت قابلة للمحاكاة بحيث وظفت فن الخبر الذي كان الهدف من ورائه هو تأصيل الرواية العربية في الموروث السردي،" فسعى الروائي إلى إيهام القارئ بأن المكتوب ينتمي إلى نمط الكتابة التراثية فأطلق على الرواية اسم "المدونة" أي أنه سعى إلى أن تكون روايته شبيهة بمدونات القرن الرابع هجري من حيث اشتمالها على أنواع متعددة كالشعر والنادرة والحديث عن الجواري والقيان ومجالس الأسمار، يضاف إلى ما سبق إلماح الكاتب إلى كتب التراث " كأغاني الأصفهاني" و"ألف ليلة وليلة"... وقد عمد الكاتب إلى إسقاط الماضـي على الحاضر، والتراث على الواقع عن طريق الإيهام بالتراث "[1].

إن الغاية من توظيف التراث في رواية "مدونة الاعترافات والأسرار" هي تحطيم شكل الرواية التقليدية، ومحاولة تحديث الرواية العربية انطلاقا من التراث، لا من الرواية الغربية التي كانت سببا في جنوح الرواية العربية إلى الذهنية والواقعية، ولكن "صلاح الدين بوجاه"- على الرغم من أنه بنى روايته على التراث- لم يستسلم للتراث ولم يسمح له بالهيمنة على النص الجديد، بل جعله وسيلة للتعبير عن الواقع لهذا صدر روايته بمناصين خارجيين، أولهما ينتمي إلى التراث وهو نص منتزع من كتاب "الإمتاع والمؤانسة" "لأبي حيان التوحيدي" وثانيهما ينتمي إلى ثقافة الحاضر وهو نص منتزع من ديوان "مجنون إلزا" للشاعر الفرنسي "أراغون"ARAGON"، وإذا كان النص الأول يعبر عن شكل الكتابة من خلال التقعيد لأحسن الكلام بحسب رأي "أبي حيان التوحيدي"، فإن النص الثاني يعبر عن مضمون الكتابة من خلال توحد الشاعر بالشعب وتبادله الألم معه ويكشف اختيار نص "أبي حيان التوحيدي" عن موقف الكاتب من التراث وشكل علاقته معه، وتتحدد هذه العلاقة بالنظر إلى التراث على أنه شكل للمضمون ووسيلة للتعبير عن الواقع [2].

وهكذا فإن رواية "مدونة الاعترافات والأسرار" سعت إلى استغلال الشكل التراثي للتعبير عن المضمون المعاصر، وهذا ما يتوافق مع إيمان "صلاح الدين بوجاه" بأن النظام اللساني يمثل المصب الفعلي لتراكمات ثقافية قد كثفت عطاءها عبر قرون وخلال تجربة لغوية تصل بين الماضي وأغوار المستقبل، كما اعتمد في روايته على الإيجاز والتكثيف والتلميح لأن هذا ما يناسب السرد الحديث الذي يميل إلى الإيجاز والابتعاد عن الاستطراد، إضافة إلى تعدد الروايات حيث عمد الكاتب في روايته إلى هذه الظاهرة لتقديم الشخصية التي يدور حولها السرد، وهي سمة من سمات فن الخبر التي تتوافق مع شخصية بطل الرواية التي تتميز بأنها شخصية إشكالية متعددة الوجوه، ومتناقضة مع ذاتها ومع العالم المحيط بها، أما روايته "سبع صبايا" فهي رواية صغيرة كتبها بوعي فني تجريبي يطمح لتنسيب قانون السرد الغربي، وكسر قواعده المعيارية فتلمس فيها محاولة تشخيص إضافات ومغايرات تسعى لبناء عالم حكائي مختلف في نمط خطابه وصيغة تلفظه وطبيعة صلته بالنظام الثقافي وعلاقاته التناصية بالأجناس الأدبية والأشكال البسيطة والخطابات المعرفية والنماذج البدائية، كما أن هذه الرواية على إيجازها وتشذر عناصرها القصصية تعبر عن التباس عميق مكتوب في شكل صور ومجازات تريد أن تكتفي بذاتها وأن تتحرر من كل سيطرة أو

[1] - محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، دراسة ،اتحاد الكتاب العرب ،دط ،دت ، ص178.
[2] - ينظر: المرجع السابق ، ص179.

إرغام خارجي، لأجل ذلك يستثمر النص الأسطورة على مستوى صياغة البناء والمتخيل محققا من ثمة مفارقة تستدعي التأمل، فإذا كانت الرواية ممثلة للبدايات وموجودة ضمن اللغة فإن الأسطورة مقدسة وحقيقية تروي الأصول وتقع ضمن اللغة ووراءها في آن واحد، ومن هنا يحدث التعارض بين شكلين ثقافيين يقترن أحدهما بالمجتمع الحديث والمعاصر والآخر بالأصول الخارقة والسحيقة، وهكذا يصوغ النص تمزقه الوجداني مترددا بين زمنيين ومنطقين في الحكى أحدهما نثري واقعي والآخر شعري أسطوري، إلا أن" تداخلهما يظل حاضرا ضمن رؤية تعيد طرح ثنائية الحقيقة والمجاز، وثنائية الاستعارة والمجاز المرسل في ضوء جديد، ذلك أن تأويل الأسطورة مهدد بخطر الخلط بين الدال والمدلول، بين الكلمة والشيء، بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وبين التشابه والتجاور" [1].

لذلك فإن قراءة رواية "سبع صبايا" تستدعي الحذر النقدي الذي يأخذ بعين الاعتبار الحوار بين المكون الأسطوري الموصل بشعائر موغلة في القدم الذي يرغب في استعادة الإنسان المعزول التواق لتحيين الحبكات الجماعية بغموضها ومفارقتها، والمكون السردي المقترن بالحاضر والتاريخ، ورغم نزوع النص إلى التخفف من ضغط السياق التاريخي والتعالي على شرط الزمن الظرفي، فإن حياته ليست نقية ولا مغسولة من الإيديولوجيات ومن ثم تورطه في المجتمع وتمثيله لمعنى ما في العالم، وبهذا المعنى فإن هذه الرواية تحول الإرث الثقافي إلى عمل فني مسهمة في الحد من الضياع الذي لحق بالأساطير الهامة في الأدب المغاربي مجسدة بذلك نوعا من هندسة المكبوت المفضية إلى تحليل الأدب الميت ومن ثم تنبع تجريبية النص وحداثته الناهضة على مهر المعاصرة بالتراث، ومزج التاريخ بالأسطورة ودمج عناصر الفن الروائي الغربي بمقومات الفن التونسي المغاربي، الشيء الذي يعدل خبرة التلقي ويحفز على قراءة تراوح بين استقبال الحكاية الروائية والأسطورية ضمن وعي نقدي يلتقط نغمة السرد المزدوجة [2].

ومن المعلوم أن الأسطورة لا تبوح بكل شيء لأن أرضها مستديرة مغلقة ولا يمكن تفسيرها إلا بأسطورة أخرى دون حاجة إلى البحث عن عللها الخارجية، وهذا ما قد يفضي إلى اعتبار رواية "سبع صبايا" في متخيلها الدفين أسطورة حديثة تسعى إلى تفسير أسطورة قديمة بحيث يكون القارئ أمام لعبة انعكاس تحول الرواية إلى رواق من المرايا المتعددة الأشكال، وبناء على ذلك تشخص الرواية عالمها خارج قانون السرد الغربي المرتبط بخصائص محددة وقيم منبثقة عن التركيبة الطبقية والاقتصادية للمجتمعات الأوروبية، مبلورة من ثمة متخيلا يستدعي تفسيرا آخر قد يطول الرواية المغاربية أصلا. إذن فان هذه الرواية تبني متخيلها بأنقاض خطابات أخرى قديمة وقصص عتيقة ومرويات جارية منها تأخذ عناصر وأنوية وحبكات صغيرة وقطع وكسور حكائية، بمجموعها يتم تركيب معمار جديد ولغة مغايرة وخيال مبتكر ومقاصد راهنة منبثقة عن السياق وعائدة إليه، وهذا ما يشهد على دنيوية النص وحضوره في الظرف والمكان والعالم، وعبر هذه الحركة المزدوجة والدقيقة يتم الانتقال إلى "التناص" إذ ليس بوسع الرواية المغاربية عامة الإفلات من ذلك [3].

[1] - مجموعة من الباحثين، الأدب المغاربي اليوم، مرجع سابق، ص162.
[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص164.
[3] - ينظر: المرجع السابق ، ص164- 165.

لقد كان هؤلاء من بين ما استقر اختيار الباحث على رواياتهم التي أبدعوا فيها فكان "التناص" ظاهرا فيها للعيان كلمحة فنية عن الرواية التونسية، غير أن التأثير الأكبر في الباحث والذي جعل بإحدى روايات الكاتب التونسي والناقد الروائي "محمود طرشونة" ومضمونها محل اهتمام كبير لدراستها ضمن طيات هذا البحث .

هي رواية "المعجزة" التي تعتبر رواية حديثة العهد وهي أكثر من غيرها قابلة لأن تقرأ بالاعتماد على ظاهرة "التناص"، والتي يمكن أن تفتح دراستها مجالا واسعا للبحث والاطلاع وإثراء حقول معرفية فكرية وفنية وجمالية كثيرة، هذا ما سيحاول الباحث التطرق إليه من خلال ملء بياض أوراق الفصول القادمة من هذا البحث .